التقبيل

لا يزال الكثيرون يتجادلون حتى الان اذا كان التقبيل طبيعياً او غير طبيعي دون ان يصلوا الى نتيجة مقنعة على حد ما يجري في جدالهم اذا كان استعمال اليد اليمنى دون اليسرى طبيعياً او غير طبيعي الا ان بحثهم في هذا مما لا يخلو من نظر لوجود امم تقبل كثيراً حتى كأن التقبيل قد خلق معها منذ الفطرة ولوجود امم لا تقبل اصلا ولا تدري للتقبيل معنى كان حسّ الشفاه فيها مفقود. اومما ذكروه من الامم التي لا تقبل امة اليابان مع انها موصوفة بالرقة والكياسة ولطف الحس ولكن هذا قد يكون فيها عن عادة ردت الطبيعة ومنعت تأثيرها كما غلبنا نحن الطبيعة في حالات كثيرة الا انهم يروون عن قبائل الاسكيمو في اقاصي الشمال انهم لا يعرفون التقبيل وكذلك عبيد افريقيا فانهم لا يعرفونه على حين المتمدنون في الوقت الحاضر يعتبرونه طبيعياً محضاً حتى لا غنى عنه بل يعتبرونه منزلا من الفردوس كما يقول بيرون الشاعر الانكليزي

الا ان الذي يذكرونه عن الرومانيين يدل على انهم كانوا يعرفونه ولكنه كان معدوداً عندهم بين الرجل والمرأة رسولا للزواج كما انهم كانوا يحكمون بالقتل على كل من يختلس قبلة من امرأة ثم انهم على ما كانوا عليه من ضعف الاداب والحياء يعتبرون جرماً كبيراً تقبيل الرجل لامرأته بحضور ابنه حتى قيل ان كاتو طرد مرة احد رجال مجلس الشيوخ لانه قبل امرأته امام ابنه

اما ما يذكر عن الانكليز بهذا الشأن فهو ان التقبيل كان في اشد اطواره عندهم في القرن السابع عشر حتى كان يجوز لكل شريف ان يقبل امرأته في فمها ولا حرج عليه وقيل ان الملكة اليصابات سمحت لشريف يدعى ليستر ان يقبلها امام رجال البلاط كلهم الا ان هذه العادة قد امتنعت كما ان التقبيل بجملة حالاته قد قل في بلاد الانكليز ليتحقق شيء من المثل القائل ان البلاد الباردة تكون ذات اهل دمهم بارد ولعل هذا المثل ينقض شيئاً لصنيع اهل اسبانيا وايطاليا وفرنسا فان التقبيل محدود بينهم مع انهم في بلاد فيها حرارة تقتضي حرارة دم ولذلك يقال عن اهل فرنسا انه عار على الاديب منهم ان يقبل امرأته امام احد. اما تقبيل الكتب والمعاهد المقدسة فشايع في كل مكان تقريباً وهو مما يقصد به محض الاحترام كتقبيل اليد ولعل العرب كانوا اكثر أمم الارض تقبيلاً لليد وسواها للاحترام فقط كما يبدو من تقبيلهم للحجر الاسود فان آثار التقبيل بادية عليه مع صلابته لفرط وقع الشفاه وكثرتها وكما يبدو عن قول المتنبي

والى حصى ارض اقام بها في الناس من تقبيله يلل

كما انهم كانوا يقبلون الاعتاب والاكمام والابسطة كما يبدو من قوله ايضاً في سيف الدولة

تقبل افواه الملوك بساطه ويكبر عنها كمه وبراجمه

ولعل خير من نهى عن تقبيل اليد او اولهم يكون عمر بن الوردي فانه يقول

انا لا اختار تقبيل يد قطعها اجمل من تلك القبل

والذي يظهر من هذا التقبيل سواء كان طبيعياً او غير طبيعي انه غير

وحيد في الدلالة على الانعطاف والمحبة بل ان الشم يعد زميله وصنوه وهو شائع كثيراً في الهند اذ يشم الرجل خد المرأة فيكون ذلك بمنزلة تقبيله اياها ويقال ان التقبيل غير موجود في اللغة الهندية لانهم لا يعرفونه بل لا يعرفون الا الشم في هذا السبيل . ومما يروونه عن هوميروس الشاعر الكبير انه ذكر في شعره تقبيل الايدي والركب والاكتاف . واما تقبيل الافواه فلم يرد له ذكر ولكنه كان شائعاً عند العرب وفي ذلك يقول مجنون ليلى

بعيشك هل ضممت اليك ليلى قبيل الصبح او قبلت فاها

ويقول ابن هانئ بعد زمن طويل

ولوى مقبلك اللثام وما درى ان قد لثمت به وقبل فوكِ

الا ان التقبيل طبيعياً وغير طبيعي شائع الان جداً لدى اكثر الامم سواء عن احترام او انعطاف وهو ليس بمستنكر الا من الجهة المرضية اذ يكون احياناً سبب عدوى بسبب رقة غشاء الشفة او من الجهة (الاميركانية) فان الاميركان يقبل بعضهم بعضاً ولا سيما النساء الرجال الى حد شائن قبيح ولا سيما حين يكون الرجل مشهوراً وآتياً من فتح وغزوة فان من النساء يقبلنه جهاراً الى الحد الثقيل كما نقلنا مرة عن هوبصن الذي نسف الباخرة مريماك في مضيق سانتياغو لمضايقة الاسطول الاسباني فانه حين رجع الى اميركا تورمت خداه من كثرة تقبيل النساء له على كل محطة مر بها ولعل هذه العادة قد اخذت عن الانكليز حين كان يسمح للمرأة بتقبيل الشريف منهم علانية . الا ان العرب ربما تكون اكثر الامم افحاشاً في التقبيل وايثاراً

له للاحترام والانعطاف على السواء . ولعل اثقل تقبيل يكون ما ورد بيان البحتري له في قوله

لست انساه بادياً من قريب يثنى تثني الغصن غضا
واعتذاري اليه حتى تجافى لي عن بعض ما اتيت واغضى
واعتلاقي تفاح خديه تقبيلا ولثماً طوراً وشماً وعضا

فانه جمع هنا كل طبائع الامم او عاداتها

وفي قول لسواه

دنوت وقد ابدى الكرى منه ما ابدى
فقبلته في الخد تسعين او احدى

ولقد افرط هذا الرقيق في الرقة حتى انقطع لان تسعين قبلة فما فوق انما هي اشد من نكزة افعى ولكن الذي يشفع له برقته او ثقله ما ورد له بعد ذلك وهو

وابصرت في خديه ماء وخضرة فما احسن المرعى وما اطيب الوردا
تلهب ماء الخد او سال جمره فيا ماء ما اذكى ويا جمر ما اندى

فان هذا من الشعر المرقص وليس بعده للحسن غاية